القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات

■ رضوان السيد ■

تتركز هذه المداخلةُ بشأن الرؤية القرآنية للتاريخ أو لنهوض الأُمم في ستّ نقاط: رؤية القرآن في نطاق ومفاهيم **رؤية العالم**، والتصور القرآني **للتاريخ** ومضامينه أو معناه وغاياته، **والأفراد والأُمَم** في الرؤية القرآنية، **والقيم والمفاهيم** الحاكمة في الرؤية القرآنية، **والجيوسياسي** في الرؤية القرآنية، **والتجربة التاريخية** الإسلامية في ضوء الرؤية القرآنية.

1. «رؤيةُ العالم» في المنهج والنتائج:

صارت «رؤية العالم» منهجاً للنظر في العالم الديني/الثقافي لأمةٍ أو ثقافةٍ معيَّنة في أواخر القرن التاسع عشر، عندما أوضح أُسُسَها وركائزَها الفيلسوف الألماني فلهلم دلتاي (1846ـ1911م)، وتابع الاهتمامَ بها السوسيولوجي

■ مفكر وأكاديمي من لبنان، ومستشار تحرير مجلة التفاهم.

الألماني الكبير ماكس فيبر (1864ـ 1920م) رابطاً ذلك المنهج أو تلك الفلسفة بالتاريخ والمجتمع. وتنقسم تلك الفلسفةُ إلى قسمين، يتعلق الأول بالتصورات الأساسية (الخير والشر، والحق والباطل، والانتماء والهوية، والخاصّ والعامّ)، ويتعلق الآخَرُ بالترتيبات والتلاؤمات ووجوه التلاقي والافتراق، التي يقومُ بها الأفراد في ضوء التصوّرات الكلية السائدة في ثقافتهم، والتي تتصل بالزمان والمكان والبيئة الصُغرى أو الضيّقة، والتي يميلُ الأفرادُ في الغالب إلى مقاربتها على أساس السائد، كما يتمرد عليها أحياناً أفرادٌ ومجموعاتٌ صغيرةٌ، إمّا لأنهم ـ لهذا السبب أو ذاك ـ يرفضون التصورات الكلية، أو لأنهم لا يرون الترتيبات المترتبة على التصوّرات الكلية ملائمةً لوضعهم الفردي أو للمجموعات الصغيرة. وقد رأيتُ أنّ هذا المنهج صالحٌ لتأمُّل الرؤية القرآنية في التاريخ ومصائر الأُمَم والإنسان؛ لأنه يمكن من طريقه تلمُّسُ المصطلحات المفتاحية في القرآن والمتعلِّقة بهذه الأُمور، كما يمكن ـ من جهةٍ أُخرى ـ النظرُ في ركائز التجربة الثقافية الإسلامية لاختبار تمثُّلها للرؤية القرآنية، والنتائج المترتّبة على ذلك التمثُّل في التاريخ.

والواقعُ أنّ هذا المنهج في التأمُّل والدراسة ليس جديداً على القرآن والإسلام، وإن لم يحمل لدى الدارسين هذا الاسم؛ فالذين يعرضون لظهور الإسلام، وقيام الدولة، يتعرضون للتصورات الأساسية للعقيدة في القرآن والإسلام، ثم يحاولون قراءة الحوارية التي قامت بين تلك المبادئ والمسلمين عندما صاروا ثقافةً وجماعةً سياسيةً وخلافةً وإمبراطورية. ومن الدارسين المسلمين الساعين للتغيير مَنْ يتحدث في دراساته عن مناهج التغيير في القرآن، ويرجعُ في ذلك إمّا إلى مصائر الأُمَم كما عَرَضها القرآن في ضوء تجاربها مع أنبيائها، أو إلى القيم التي يراها القرآن الكريم ضروريةً لنهوض الأُمم، كما تؤدّي مخالفتُها إلى انحطاطها أو هلاكها. وهناك نهجٌ اجترحه دارسون مُحْدثون لقراءة نبوة النبي ﷺ وسيرته من خلال القرآن.

وهـم لا يلجـأون في هذا الأمر بالطبـع إلى التصـورات أو المفاهيم القرآنية؛ بـل يستظهـرون الوقائع المذكورة في القرآن عن علاقـة النبي ببني قومه من قُريش، وإلى ما ورد في القرآن في المرحلة المدنية من إشاراتٍ إلى الأحداث والغزوات، كما إلى « أسباب النزول» التي تأتي تفسيراً للآيات القرآنية المكية والمدنيـة. وهم يرون أنّ العودة إلـى المفاهيم القرآنية توضّح رؤية العالَم في القـرآن، كما أنّ العودة إلـى الوقائع والأحداث توضّح رؤيـة القرآن للتاريخين الإنساني والإسلامي.

2. القرآنُ والتاريخ:

يملـك القرآنُ الكريم تصـوراً للتاريخ يعتمد على ثلاثـة عناصر: الزمان، والمكان، والفكرة. أمّا الزمان فينقسم إلى ثلاثة أقسام: الزمان ما قبل التاريخ أو مـا فوق التاريخ، والزمـان الطبيعي، والزمان التاريخي. وأَقصِدُ بالزمان ما فـوق التاريـخ ما يذكُرُهُ القـرآنُ الكريم مـن خطاباتٍ وإشـاراتٍ وقَصص عن عوالـم الملائكة والجـنّ، وعن آدم في الجنّة، وعن الجنة والنار، وعن القيامة والمصائـر الكونية والإنسانية في ظلِّها. وهو «مـا فوق التاريخ»؛ لأنه لا يرتبط بحقبـةٍ معيَّنـةٍ، كما أنه لا يرتبـطُ بالمكان، فالزمـانُ الإنساني حالـةٌ أو عددٌ أو خطـابٌ يتحـدد بالمكان، وليـس الأمرُ كذلك في الخطابـات القرآنية بشأن العوالم أو الذوات أو الأشياء الأُخرى؛ بَيْدَ أنّ هذه «الزمانيات» التي تحدث ما قبـل الزمان الإنساني أو ما بعده لا يُحكَمُ عليها بالصحة أو عدمِها من طريق مدى ارتباطها بالمكان؛ لأنها في الأصل غير مكانية، وإنّما تتجلَّى أهميتُها في التصـورات الكلية التي تُريـدُ تثبيتَها فيما يتعلَّقُ بالكـون وقدرة الله ﷻ، كما تتجلَّـى تلك الأهميةُ في الفكرة التي تريد تثبيتهـا عن خَلْق الإنسان ومصائره ووظيفته في هذا العالم. وهكذا فالزمان ما فوق تاريخي ـ أو ما قبل تاريخي ـ يقـوم علـى الغائية، ويملك وظائـف تصوُّرية وأُخرى تفسيريـة، ولكلا الأمرين

أبعادٌ رمزيةٌ كبرى. وأما **النوعُ الثاني** من الزمان في القرآن فهو الزمانُ الطبيعي، وهو يظهرُ في النصوص التي تتحدث عن خَلْق العالَم والإنسان، وهي متصلةٌ بفيزياء العالَم وبيولوجيا الكائنات، وهي طبيعيةٌ وليست تاريخية رغم حدوثها في هذا العالم؛ لاستنادها إلى قوانين ثابتة تضمنُها قدرة اللّه ﷻ وإرادتُه، ولا مدخل للإنسان في كينونتها الأُولى، وإن أثّر المكانُ وأثّر الإنسانُ في مراحلها التطورية. هذا النوعُ من الزمان تاريخيٌّ بالمعنى العامّ؛ لأنّ لمحتوياته بدايةً، كما أنه قابلٌ للدراسة والتفحُّص بالمعنى العلميّ لذلك. ورغم ظهوره وإدراكه بالحواس وخضوعه للاختبار؛ فإنّ القصْد القرآنيَّ ليس تتبُّع فسيولوجياته أو كيميائياته (كما يعتقد باحثو الإعجاز العلمي)؛ بل (وكما فهم المسلمون) الاستدلال على وجود اللّه وقدرته وإحكام صناعة الخَلْق. أمّا النوع الثالثُ من الزمان ـ وهو الذي سميتُهُ **الزمان التاريخي** ـ فهو يحدث في المكان، وهو يتضمن وقائع محدَّدة (دعوات الأنبياء، ومسالك الأُمَم إزاءها). والقرآن في هذا الصدد واضحٌ لجهتين: **القَصَص المتعلّق** بالنبوات والأُمم، **وضرورة إفادة** النبي والمسلمين منها بالإقبال على اعتناق دعوة النبي لكي لا يصيب المسلمين ما أصاب الذين خالفوا دعوات أنبيائهم. والقرآنُ ـ بوصفه كتاباً دينياً ـ يرى العالَمَ في هذا الإطار؛ أي: أنه صراعٌ بين الخير والشرّ، وبين الحق والباطل، ولسوف ينتصر الخير بالتأكيد إذا أفاد مُعاصرو دعوة النبي من الماضي وتاريخ الدعوات، وإذا ما التزموا بالمبادئ الكبرى للدعوة. ولذا فإنّ القرآن يذكر على سبيل المثال وقْعة بدر، وكيف وفّق اللّه المسلمين لكسْبها، كما يذكر وقعة حنين، وكيف كاد المسلمون يخسرون لولا رحمةُ اللّه بهم؛ في حين كانت هزيمةُ أُحُد درساً لمّا لم يتبعوا إرشادات نبيهم ما كان منها عاماً وما كان منها خاصّاً بترتيبات القتال. وهكذا فالزمان التاريخي في القرآن له ركيزتان: ارتباط الزمان بالمكان، وارتباطه بالفكرة أو الدعوة؛ بمعنى أنّ النصّ القرآنيَّ لهذه الجهة إنما يؤرّخ لمصائر الدعوة الدينية في

التاريخ. والدعوةُ هذه هي دعوةٌ مهدويةٌ؛ أي: أنها تتقصَّدُ دَفْعَ الناس والزمان والمكان باتجاه الهداية التي يترتب عليها عُمرانُ العالَم وازدهارُه، كما تترتّب عليها مصائرُ أديانٍ وأُمَم؛ إذ ينتصر المستضعَفون وينهزمُ المستكبرون، وتقوم علاقاتٌ مع «أهل الكتاب» تبعاً للكلمة السواء التي دعاهم النبي والمسلمون إليها. فالتاريخُ بهذا المعنى ـ وإن بدا في صورة تكرار: دعوة، رفض، هلاك. أو دعوة، قبول، فانحراف أو تحريف ـ يبقى شديد الحيوية؛ ذلك أنّ مجيئَ النبيِّ محمدٍ برسالته للتصحيح والإكمال يبلغ ذروته بظهور الأُمة في الزمان، وظهور الأمة في الزمان هو الذي يحظى بضمان الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، والحفَظَةُ هم الذين يتحدث عنهم القرآن بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: 44]. فالذكر محفوظٌ بضمان الله، إنما قومُ النبي والمؤمنون به هم المسؤولون عن هذا الشرف المُلْقى على عواتقهم، ومن هنا تأتي قُدسية هذا التاريخ: أنه مهدويٌّ وغائيٌّ، وأنه معنيٌّ بظهور الأمة وانتصارها أو سوادها في الزمان والمكان والفكرة: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33].

الزمان التاريخي في القرآن له ركيزتان: ارتباط الزمان بالمكان وارتباطه بالفكرة أو الدعوة

3. الأفراد والأُمم في الرؤية القرآنية:

يذكر القرآن أحياناً أشخاصاً أفراداً على سبيل العظة والعبرة أو الأمثال، مثل صاحب الجنة أو البستان، أو الرجل الذي فيه شركاء؛ لكنه في الأعمّ الأغلب عندما يذكر أفراداً فهم الأنبياء المبعوثون إلى أُمةٍ أو مدينةٍ أو قرية. ويدعو النبيُّ ـ الذي يأتي في العادة من تلك الأمة أو القرية، ويصطفيه الله ـ يدعو بني قومه إلى الإيمان بالله، وقد يأتيهم بالمعجزة إذا طلبوها شأن هودٍ وصالح ويونس. وقد يترددون ويُظهرون بدءَ قَبول فيزداد حرصُ النبيّ على

هدايتهم؛ لكنهم ينتهون غالباً إلى الإنكار والكفر، فيدعو الله ﷻ إلى الانتقام منهـم ليس مـن أجل النبي؛ بل لما يجنونه في العالـم وعليه من شرّ. وهناك واقعتـان يوردُهُمـا القرآن ويكررهمـا، وتكون فيهما المواجهـةُ ليس بين النبي وبني قومه، وإنما بين النبي والمسيطر على بني قومه، وهما الملكُ البابليُّ في حالـة إبراهيم، والملك المصري (الفرعـون) في حالة موسى. وينزل الهلاك بالفعل بالملكَينْ اللذَين يعاديان الدعوة لسببين: أن كلّاً منهما اعتقد الأُلوهية فـي نفسـه، وما قبِـلا الدعوة من رجلين مـن العامة، وأنهما كانـا قد استمرآ مسألـة الطغيـان والجبـروت، فمـا استطاعا التغييـر باتجاه الإيمـان والطاعة والعمل الصالح، أو الاستجابة لدعوة النبي.

أمّـا مصيـر الأُمـة أو القرية أو المدينـة أو المسيطر عليهـا إلى الهلاك فيعـود إلى أمرين أو مسلكين: **الكفر والفساد**. فالقريةُ التي يأتيها رزقُها آمنةً مطمئنـةً، بمعنى أنها كانـت على الإيمان والعمل الصالـح، تدفعها النعمةُ إلى الكفـر، وإلـى التمادي فيـه رغم دعوة النبـيّ وإلحاحه. وفي هـذه الحالة فإنّ إنكارهـا للأسباب ـ أي: إنكار النعمة والإساءة إلى الذين يدعونها للرجوع إلى الحـقّ ـ يكـون هو السبب المباشر لوقوع النقمة عليها. وقد لا يحدث ذلك كلّه مرةً واحدةً أو فجأةً كما حدث مع قوم لوطٍ أو قوم صالح؛ بل قد يمرُّون بمحنةٍ وابتلاءٍ ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: 112] لكي يتوبوا ويُنيبوا إلى الحـقّ. وبذلـك فإنّ **الكفر** لا يعنـي عدم الإقبال على دعـوة النبيّ وحسْب؛ بل يعنـي أيضاً خيانة النظـام الأخلاقي الذي على أساسه كان الـرزق آتياً بهناءٍ واستقامـةٍ وازدهار. أمّا **الفساد** فيكون باقتران الكفر بالإساءة إلى الصالحين والقوى الخيّرة بداخل القرية أو الأمة، كما يكون بإثارة الحروب والنزاعات مع أقوام وأُمَم أُخرى بغياً وعدواناً. فالفسادُ في الأرض يعني ـ بحسب المعاجم ـ ما تعنيه الفتنةُ، بإنزال الضرر المتعمّد بالإنسان أو العمران، والبغي والعُدْوان علـى القريـب والبعيـد طغياناً واستكبـاراً. ولذا فـإنّ الهـلاك الحاصل نتيجة

الفساد يوشكُ أن يكونَ سُنّةً تحدث لكلِّ مَنْ لا يكتفون بالإخلال بالأسباب؛ بل يتجاوزون ذلك إلى نشر الفساد في الأرض بيئةً أو إنساناً، وبغياً وعدواناً. وقد ذكر الراحل عباس محمود العقاد أنّ مواصفات القرى التي يذكرها القرآن الكريم هي مواصفاتُ تلك المُدُن التي نشأت وازدهرت على طُرُق القوافل، وفي قلب الصحراء أو على حواشيها في الغالب، وإنما يمكن أن تكون (حاضرةَ البحر) أيضاً. وقد ارتبط بها أو بمسارها التاريخي أمران: شيوع الفساد الكبير فيها نتيجة الثروات الهائلة التي تنصبُّ عليها، وظهور المصلحين الذين يحاولون إعادة تلك المستقرات الحضارية إلى الانضباط الأخلاقي والإنساني.

يذكر القرآن أحياناً أشخاصاً أفراداً على سبيل العظة والعبرة أو الأمثال، مثل صاحب الجنة أو البستان، أو الرجل الذي فيه شركاء

وقد نجح المصلحون في بعض الأحيان؛ لكنّ الحالات التي يذكرها القرآن الكريم - عظةً وعبرةً وتحذيراً - ما كان فيها نجاحٌ كبيرٌ للأنبياء، وغلبتْ على أهلها الشقوة، بسبب سيطرة الاضطراب الأخلاقي المعبَّر عنه بالفساد. ويذكر المفسِّرون للقرآن أمرين: أنّ الإهلاك نتيجة الاضطراب في الطبيعة إنما كان ظاهرةً انقضت بلطف الله ورحمته بعبادة، وأنّ الباقي نتيجة البغي والعدوان والفساد، أن تأتي العواقبُ من خلال إهمال الأسباب أو تجاوُزها وعلى مدياتٍ متطاولة، وتُشبه انتقال السيادة الحضارية من أمةٍ إلى أُخرى وليس الهلاك الفيزيقي، فيكون الأمر أدنى إلى ما يُذكَرُ من انحطاطٍ للأُمم بعد ازدهارها، وغلبة الآخرين عليها بداعي الانتقال الحضاري أو الغروب الحضاري أو ما صار يُعرفُ بالانحطاط. **والأمر الآخَرُ** الذي يذكره المفسِّرون أنّ الله سبحانه وعد في القرآن الكريم بحفظ الذكْر؛ أي: بإظهار الدين، وهذا يعني أنه سبحانه لن يستبدل بأمة الإسلام غيرها. أمّا الابتلاءُ فإنه حاصلٌ للجميع وعليهم كما هو الشأن مع الأفراد والجماعات، في العالم الدنيوي، أو دار الدنيا.

4. القيم والمفاهيم في الرؤية القرآنية:

تحكـم الرؤية القرآنية للتاريخ والأُمم والحضارات فيه اعتباراتٌ قيميةٌ وأخلاقيــة. وقـد ذكر المستشــرق الياباني أكيهيتو إيزوتســو أنّ تصوُّرَ الله سبحانــه في ديانات التوحيـد الإبراهيمية ـ وفي الإسلام على الخصوص ـ هــو تصــوُّرٌ أخلاقي. ومن المعـروف أنّ هناك فرقاً بيــن القيم والأخلاق، فالقيــم هي الجانبُ النظري والعقـدي، والأخلاق هي الأمورُ التي تبدو في السلـوك الإنسانــي. ولأنّ الإلزامــات الأخلاقية إلزاماتٌ دينيــةٌ في الأصل؛ فهــي أدنــى إلى أن تكونَ قيمـاً. وكما سبق القول؛ فقـد حاولْنا الجمْعَ بين الأمريــن فــي منهــج «رؤيــة العالم» حيــث تحضُرُ علــى المستــوى النظري **التصـوراتُ الأَساسيــة** التي تتَّسـمُ بالإطلاق بمعنًى ما، أمّــا على المستوى الواقعــي للأفراد والجماعــات الصغيرة؛ فإنّ التــلاؤم أو محاولته يظلُّ هو التفكير والسلوك الوارد.

واستنــاداً إلــى منهـج رؤيــة العالــم، واستقــراء القــرآن فيمــا يتعلَّــقُ بالقيــم والمبــادئ التي تحكُـمُ العلائق بالأُمــم والحضــارات استظهرتُ أنّ المصطلحــات/ المفاتيــح أو الثوابت القيمية/ الأخلاقيــة، تتركّزُ في ستّ: المســاواة والكرامة والرحمة والعدالة والتعارُف والخير العام. أمّا المُساواةُ فتستند إلى حقيقة «النفس الواحدة» التي خلقَها الله، والتي تعني المُساواة بيــن الناس من سائــر الوجوه، ترتُّباً على أنها تعنــي أنهم جميعاً مخلوقاتٌ لله. وهــذا يقتضي من جانــب المؤمن ـ نظراً وعملاً ـ الابتعاد عن التمييز، والابتعــاد عن الكبرياء، واعتبــار حصول الأمرين كبائــر فظيعة، قد تُوصِلُ إلــى الكفــر والفساد والإفســاد إن صارت قيماً أو مبادئ فــي النظر، وليس مجــرَّد سلوكات مخطئة. وتتصل قيمة **الكرامة** بقيمة المساواة بشكلٍ وثيق؛ ذلــك أنّ **الكرامــة** كمــا يعرضُهــا القرآن هي قيمــةٌ وجوديــةٌ، تتعلق بفطرة الإنســان واختصــاص الله لــه بالعقــل والاستخــلاف فــي العالــم، وتسخير

إمكانيات هذا العالَم له، وإقداره على الولاية فيه. ويريد بعض المفكرين المسلمين إلحاق ذلك بمفهوم أو واجب **التكليف** الإلهي للإنسان. والذي أراه أنّ اللّه سبحانه جعل ذلك في قسم منه فطرةً، وفي القسم الآخَر خياراً، ولو فهمنا ذلك كما نفهم التكليف؛ لأخرجْنا الإنسان الذي لا يشارك بطريقةٍ إيجابيةٍ في إعمار الكَون من الإيمان، وهذا غير واردٍ في السياق الذي نقصِدُه. والذي أُريدُ إضافتُهُ هنا أنّ القرآن الكريم يتحدث في بعض آيات الكرامة عن **الحُرمة** والحدود؛ فللإنسان حُرْمةٌ تقتضيها إنسانيتُهُ التي ميّزتْهُ عن سائر مخلوقات اللّه. وهناك من العلماء مَنْ يفهم هذه الحُرْمة باعتبارها تعني ما نعنيه بالحرية اليوم.

تتركز الثوابت القيمية والأخلاقية في القرآن في ست هي: المساواة والكرامة والرحمة والعدالة والتعارُف والخير العام

وقد قام الطاهر بن عاشور في كتابه « مقاصد الشريعة» بالفعل بإضافة الحرية إلى منظومة مصالح الإنسان الضرورية الخمس والموروثة من المنظومة الفقهية الإسلامية القديمة وهي: حق النفس وحقُّ الدين وحقُّ العقل وحقُّ النسْل وحقُّ المِلْك. وعلى أيِّ حالٍ؛ فإنّ قيمة الكرامة تتصل من جهة بالمساواة، وتتصل من جهةٍ أُخرى بموقع الإنسان في الكَون. أمّا القيمةُ الثالثة فهي قيمةُ **الرحمة**، وفي القرآن الكريم أنّ اللّه سبحانه كتب على نفسه **الرحمة**، وجعلها القيمة العليا في تعامُل البشر بعضِهم مع بعض، وهذا يعني أنّ الرحمة والنعمة من جانب اللّه تُجاه الإنسان تنعكسان علاقات مودّة ورحمة وسكينة في التعامُل بين البشر، أو ينبغي أن يكونَ الأمر كذلك. بل إنّ القرآن يعدّ النبيَّ والإسلام رحمةً للناس ينبغي أن تتجلَّى في حياتهم جميعاً: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]. وتتصل بقيمة **الرحمة** قيمةُ **التعارُف**: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ [الحجرات: 13]. وإذا كان المفسّرون المسلمون

قديماً، والمفكرون حديثاً ما ألحَقوا **التعارُف** بالقيم الأُخرى لاعتقادهم أنها نصيحــةٌ أو ندّبٌ لظهورها مــرةً واحدةً؛ فإنّ القراءة الأعمـق للقرآن تَصِلُ التعـارُفَ **بالمعـروف**، وهــو مفهومٌ يردُ في القرآن مئـات المرات. والرحمةُ من جانب الإنسان تُجاه أخيه الإنسان قد تُفهم بطريقةٍ فردية؛ أمّا التعارُفُ والمعـروف، فـلا يمكن فهمُهمـا إلاّ بطريقةٍ شاملةٍ؛ أي: فـي العلاقات بين البشــر علــى اختــلاف أديانهــم وثقافاتهــم وأخلاقهــم. فالآيـات القرآنيةُ تفترض قواسم مشتركةً أساسيةً تتمثّل في المساواة والكرامة والمعروف أو التعارُف، وهي القيم والمعاني التي ينبغي أن تسودَ في العلاقات بين الأُمم والحضـارات. ولو حدث ذلك لما انتشر الكفـر والفسادُ بين الأُمم وبداخل الأُمَـم ذاتِها. أمّا قيمةُ **العدالة** فهي ظاهرة الحضور في الخطاب القرآني، وهــي تعني الاستقامة في النظــر والعمل، والاستقامة والتوازُن في العلاقات بين النـاس. والقرآنُ يقرِّر أنّ الله سبحانه لا يُريدُ ظُلْماً للعباد؛ بَيْدَ أنّ قيمة **العـدل** هــي في الأعمّ الأغلب في العلاقات بين الأفراد، وفي العلاقات بين الأُمَم. وهي ضروريةٌ حينما يتعلّقُ الأمر بالكرامة والحقوق، وتُفهمُ في سياق المســاواة والرحمة، والتعارُف عندما يتعلّق الأمر بالأفراد أو بالعلاقات بين الأُمَم. وخاتمةُ منظومة القيم القرآنية **قيمةُ الخير العامّ**، ومفرد **الخير** هو الأكثر وروداً في القرآن بعد الرحمة والرحمن والرحيم، وهو يعني الأحسن والأجمل في التفكير والفعل والتصرُّف. والملحوظ أنّ القرآن يجمعُ **خير** على **خيرات** عندما يتعلق الأمر بالعلاقات مع الأديان والأُمَم الأُخرى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: 148]. ومن الواضح أنّ هذه القيمة الكبرى تتعالقُ وتتشابكُ مــع بقيــة أجزاء المنظومة مثــل الرحمة والتعــارُف والعدالــة. إنّ الخطابَ القرآني يعدّ المنظومةَ القيمية هذه مسدِّدةً إنّ سادت للنظرة إلى العلاقات بين الأُمم والحضارات، وأنها تحتوي على الضمانات التي تحولُ دون الفساد والإفساد لطبيعة الإنسان وفطرته، ولعلاقات الناس بعضهم ببعض.

5. الجيوسياسي في الرؤية القرآنية:

جـاء في القرآن الكريم في مطلع سـورة الـروم: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الـروم: 2ـ4]. وأدنى الأرض هي الشام. وكان الفرس الساسانيون قد عبروا الفُرات في مطلع القرن السـابع الميلادي، وسـيطروا على عدة مواطن في الشـام بما في ذلك بيت المقدس، حيث استلبوا من كنيسة القيامة «صليب الصلْبوت» الذي يعتقد المسـيحيون أنّ السـيد المسيح صُـلب عليه. وبالفعل فإنّ البيزنطيين ما لبثوا وبقيادة هِرقْل ـ الذي وصـل للسـلطة عام 610م ـ أن قامـوا بهجوم مضـادٍّ، ووصـلوا إلـى **المدائن**؛ أي: العاصمة السًاسانية التي كانت قائمةً بالعراق على مقربـةٍ من مدينة بابل القديمة، فاسـتنقذوا الصـليب، وظلُّوا على شـيء من السيطرة بمناطق شـرق الفرات عندمـا بدأت الفتوحات الإسـلامية حوالـي العـام 635م. لقد أطلْتُ بعض الشـيء في شـرح معنـى الآيتيـن أو خلفيتهما التاريخية؛ لأُشـير إلى أهمية الجيوسياسـي فـي الرؤيـة القرآنيـة؛ فالقرآن بهذه الإشـارة يحسـمُ الأمر لصـالح الروم أو المسـيحيين البيزنطيين ـ وبسبب مسـيحيتهم ـ في مُواجهة الفرس المجوس. وهكـذا فإنه حتى الجيوسياسـي في القرآن الكريم هو دينـيٌّ بالدرجة الأُولى، وكما كان عليه الأمر بالنسـبة للأُمم الغابرة. فتلك الأُمَمُ هلكت لاستعصـائها على دعوات الأنبياء، ووقوعها في الفسـاد الديني والاجتماعي والسياسـي. ثم إنّ هـذا الجيوسياسـي القرآني الخاصّ والذي يذكر الشـام (بيت المقدس) باعتبارها موطناً للقاء الديانات الثلاث، أو أتباع الدين (الإبراهيمي) الواحد، يذكر (مصـر) أيضـاً، وإنْ في معرضٍ آخر تاريخي. وقد اهتمّ علماء القرآن قديمـاً بجغرافيـة القرآن وأعلامـه، وألّفوا الكتب في ذلـك؛ لكنهم ما اهتموا

> **مفرد الخير هو الأكثر وروداً في القرآن بعد الرحمة والرحمن والرحيم**

لمعنــى هذه الجغرافية، باستثناء عَدِّهم الإسلامَ شريكاً في الجغرافية الدينية للموروث اليهودي/ المسيحي.

6. **الرؤيـة القرآنيـة والتجربـة التاريخية الإسلاميـة**: لأنّ الأمر هنا هو أَمْـرُ القرآن والتاريخ ورؤية الأُمم والحضارات؛ فسنظلُّ في المجال التاريخي، ونختـمُ بـه؛ أي: نختـم بنظرةٍ فـي التجربة التاريخيـة الإسلامية مـع الرؤية القرآنيـة للتاريـخ والأُمـم والدعـوات. ولنتذكَّـرْ أنّ المـؤرّخ محمد بن جرير الطبري (310 هـ) سمَّى كتابه الشهير في تاريخ الإسلام والعالَم: تاريخ الرسل والملـوك، أو تاريـخ الأُمَم والملوك. والـذي أُرجِّحُهُ أنّ الاسـم الأول (الرسل والملـوك) هو الأَرجح لما قصده الطبـري. فالرسل بُعثوا إلى الأُمم والملوك، وتاريـخ الطبـري ليس تاريخاً عادياً؛ بل هـو تاريخٌ مهدويٌّ، بمعنـى أنه يقيم خطَّيـن: خطاً للدين والدعـوات، وخطَّاً للسلطة والسلطـات. وقد كانت النبوةُ والسلطـةُ تتلاقيـان أحيانـاً، كمـا حصل لدى بنـي إسرائيل حيـث كان بعضُ ملوكهـم أنبيـاء أو العكس. إنما ما يقصدُهُ الطبـريُّ أنه مع نبوة النبي محمد ﷺ، وصـل التاريخ إلى ذروته، أي: عـادت النبوة لتتلاقى مع السلطة في أُمة النبـوة ودولة الخلافـة. على أنّ هذه الرؤية من خـلال التجربة ما انفرد بها الفقيه والمؤرّخ الطبري؛ بل تصدّى لها المتكلمون المسلمون، فكان هناك مَنْ قَـدّم قيمـة **العـدل** في العلاقة بيـن الله والإنسان (وهم المعتزلـة والمحكِّمة والشيعـة الزيديةُ والإمامية)، وكان هنـاك مَنْ قدَّم قيمة العناية والرحمة في العلاقة بين الله والإنسان (وهم أهل السُّنَّة والجماعة).

إنهـا تجربـةٌ دينيةٌ وتاريخيةٌ زاخرة، وما يزالُ القـرآن الكريم يؤثِّر ويفعلُ فـي الأمة الحاضـرة، كما في خطابيـه التاريخيين (عن الأمـم الغابرة، وعن الأمة الإسلامية)، وستظلُّ الأمةُ تُعيدُ ومن خلال تجاربها قراءة النصّ القرآني والعيش في جنباته الرحبة والوارفة الظلال.